

النبي صلى الله عليه وسلم وتأخره في الحج إلى سنة عشر

الصحيح أن الحج على الفور، وإذا قيل: لماذا أخر النبي صلى الله عليه وسلم الحج إلى سنة عشر؟ فالجواب: أنه لم يتمكن؛ وذلك لأن المشركين كانوا قد تولوا على البيت، توجه في سنة ست محرماً يُؤمل أن يدخله بعمره، ولما جاء إلى الحديبية صرفوه وقالوا له: لا يمكن أن تدخل وتعرف العرب أنا أخذنا صفة؛ فتحلل وهو بالحديبية نزل في ذلك قول الله تعالى: { هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوْكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَذِي مَعْكُوفًا أَنْ يَلْتَعَجَ مَحْلَهُ } ولكنهم صالحوه على أن يأتي من العام القابل في سنة سبع، وأن يعتمر، وألا يقيم بمكة أكثر من ثلاثة أيام، فامتثل ذلك. ففي سنة سبع جاء في شهر ذي القعدة وأدى عمرته فقط، ولم يمكنه من أن يزيد على ثلاثة أيام؛ فانصرف بعد ثلاثة أيام في شهر ذي القعدة، ولما كان في سنة ثمان فتح الله تعالى عليه مكة لما جاء بعد أن نقض المشركون العهد، جمع المسلمين في عشرة آلاف ودخل مكة وفتح الله، وذلك هو قوله تعالى: { لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولُهُ الرُّؤْبَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ أَمْنِينَ مُحَلَّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَنَحَا قَرِيبًا } وقيل: إنها المراد من قوله تعالى: { إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَنَحَا مُبِينًا } . { فَتَحَنَّا لَكَ فَنَحَا مُبِينًا } : لما فتحت مكة في رمضان في سنة ثمان بقي في مكة إلى أن مضى جزءاً من شهر شوال، ثم إنه غزا هوازن في حنين وهزمهم، وكذلك واصل السير بمن معه إلى الطائف وحاصرها الطائف ودام الحصار نحو أربعين يوماً وهم محاصرون الطائف ولم يستسلم أهل الطائف وبقوا متحصين بحصونهم، ثم رجع إلى الجعرانة واعتبر من الجعرانة في أول شهر ذي الحجة - أو في آخر ذي القعدة - واشتعل بقسم غنائم حنين ولم يتمكن من الحج في ذلك الزمان وحج المشركون. وفي سنة تسع أسلم من حول المدينة ومن حول مكة وأسلم أيضاً أهل الطائف وأسلم العرب الموالي للذين في نجد وفي الحجاز ولما أسلموا كان كثير منهم على عادتهم، وبقي بعضهم لم يسلم، أرسل النبي - صلى الله عليه وسلم - أبي بكر أميراً على الحج في سنة تسع، وأردفه بعلي وأردفه أيضاً بعض الصحابة، وأمرهم أن ينادوا في مني وفي عرفة وفي المزدلفة وفي المشاعر أن يقرءوا أول "سورة براءة" { يَأَءُهُ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْنَمِنَ الْمُشْرِكِينَ فَنَسِيَحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ عَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَإِنَّ اللَّهَ مُحْزِي الْكَافِرِينَ وَإِذَا أَنِّي مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى التَّائِسِ يَوْمَ الْحِجَّةِ الْأَكْبَرِ } ؛ فكانوا ينادون: لا يحج بعد هذا العام مشرك؛ لأن الله نهى عن أن يحج المشركون أو يدخلوا البيت، ولا يطوف بالبيت عربان. وكانوا يطوفون في الجاهلية عراة إذا لم يتيسر لهم كسوة من أهل مكة؛ فأمرهم بأن يمحوا تعاليم الشرك، وما كان أهل الشرك يعملونه حتى تنطفف البيت وتنتطفت مكة وزالت ما فيها من آثار الكفر، ومن آثار الشرك؛ فعند ذلك حج النبي - صلى الله عليه وسلم - حجة الوداع وحج معه المسلمين كلهم، قيل: إنهم بلغوا مائة وأربعين ألفاً - يعني تقريراً - الذين حجوا في ذلك العام، ولما حجوا أخذ يعلمهم - صلى الله عليه وسلم - مناسك الحج التي هي محملة في القرآن؛ يعلمهم ويقول: { خذوا عني مناسكم فلعلني لا ألقاكم بعدها } . وكأنه أشعره الله وأوحى إليه أن هذه آخر سنة يعيشها؛ ولأجل ذلك مات بعدها ببضع وثمانين يوماً. دل ذلك على أنه وَدَعَ، الناس لما حج سميت حجة الوداع؛ لأنه ودع فيها الناس، بين لهم مناسكهم.